كتابات

٢١

فصليـة ، تعنى بشئـون الأدب والفكـر ـ العـدد الواحـد والعشرون ـ السنة العاشرة ١٩٨٥

"خالدُ الفرج".. ويظلّ الدربُ موصولاً

كتابات

فصلية . تعني بشئون الأدب والفكر

رئيس التحرير

على عبد الله خليفة

المحرر العام

أمجد ريان

الرسوم

للفنان عمر جيهان

العدد الحادي والعشرون

السنة العاشرة ١٩٨٥

الادارة والتحرير :

المنامة ـ البحرين ـ ص . ب (٥٠٥٠)

هاتف : ٢٤٣٨٤٤ برقياً دار الغد

تعنون كافة المقالات والرسائل باسم رئيس التحرير
الحوالات والشيكات باسم (كتابات)

ثمن النسخة :
في البحرين دينار واحد
وتضاف أجور البريد
بالنسبة للخارج

بدل الاشتراك السنوي (أربعة أجزاء)

البحرين : ٤ دينار
البلاد العربية : ٦دينار
البلاد الأجنبية : ١٠ دينار
المؤسسات الرسمية : ١٥ دينار

الاعلانات يتفق بشأنها مع الإدارة

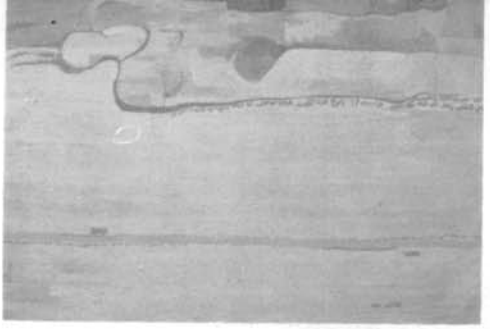

ص (١٣٧) - الفن التشكيلي الفلسطيني الى اين

محتويات العدد

ص (١١٧) حوار
حول ظاهرة الغموض
مع الشاعر قاسم حداد

ص

الشـعر

توقيعات للطفولة ..... أحمد مدن ٦
فيما أرى ..... أشرف عامر ١٠
تغنى للتباعد ، لى..... أمجد ريان ١٢

القصة

سهرة ..... عبدالله خليفة ٢٠
عتبة للرعشة ..... محمد بدران ٢٨
بيـانو ..... محمد فائز ٣٠

الدراسـة

جماليات القصيدة الجديدة ..... أمجد ريان ٣٤
أ . ص أزمة منهج ونص ..... فوزية رشيد ٤٢

من التراث الشعبي العربي

الدبكة في الفرات ..... عبد القادر عياش..... ٨٠

ابراهيم العريض محاضرة عن الترجمة
ص (١٣٦)

جيل كليبورج في فيلم عن القضية الفلسطينية
ص (١٣٢)

ص (١٠٢)
ترجمة جديدة لقصائد من بول ايلوار

الشعر واحداث بيروت
ص (١٤٠)

ص

الترجمة

حكايات و أساطير الهنود الحمر ..... راوية صادق ٨٦
قصائد بول ايلوار ..... محمد هشام ١٠٢
سلطان باهو ..... خورشيد نسرين ١٠٦

الحوار (حول ظاهرة الغموض)

مع الشاعر قاسم حداد ١١٧
مع الشاعر محمد بدوى ١٢٥

متابعات

عودة الى فيلم حنا .ك ..... علياء عبدالعاطى ١٣٢
الترجمة في الأدب العربي الحديث ١٣٦
الفن التشكيلي الفلسطيني ..... سامية رؤوف ١٣٧
حول قصائد بيروت ..... مصطفى والي ١٤٠

الملف

الشعر النبطى .. جمعه ودراسته على ضوء النظريات
والمناهج المعاصرة ..... د. سعد العبد الله الصويان ١٤٣

الشعر النبطي

جمعه ودراسته على ضوء النظريات والمناهج المعاصرة

الدكتور سعد العبد الله الصويان

الشعر النبطي

جمعة ودراسته على ضوء النظريات والمناهج المعاصرة

توطئة :

سأتناول هنا الشعر النبطي (العامي) في المملكة العربية السعودية، والجهود المبذولة لجمعه والحفاظ عليه ولكن قبل أن أتطرق إلى هذا الموضوع أريد أن أشير إلى وضع الدراسات الشعبية في الوطن العربي بشكل عام وأشير إلى بعض العقبات التي تعترض سبيل تقدمها.

أود أن أؤكد في البداية على أن العناية بالأدب الشعبي تعد ظاهرة جيدة تدل على مدى وعي الأمة ورقيها الحضاري ونضوجها الفكري ، حيث نجد الدول المتحضرة قد أسست المعاهد وأنشأت الأرشيفات لجمع آدابها الشعبية وتصنيفها ودراستها على أسس سليمة ، وذلك لما رأته من الفائدة العلمية والقيمة الفنية لها . وهذه الأمم المتحضرة لم تعن بآدابها الشعبية حسب ، ولكن قامت بمجهودات كبيرة لمسح المجتمعات الأخرى . ولا سيما المجتمعات البدائية ومجتمعات العالم الثالث - لجمع آدابها الشعبية ودراستها ، بينما نجد أبناء هذه المجتمعات أنفسهم يعزفون عن دراسة مأثوراتهم وآدابهم الشعبية لاعتقادهم أنها ليست الا خزعبلات تدل على التخلف وخرافات لا تستحق أى عناية او اهتمام . وهذا شيء مؤلم حقا ، فأبناء اي شعب هم أحق من غيرهم وأقدر على دراسة ما خلفه لهم الآباء والأجداد ، وهذا الموروث القيم ملكهم هم قبل غيرهم من الأمم .

ان رفض المأثورات والآداب الشعبية لا ينفي وجودها اطلاقا ، وان المرء ليأخذه العجب من اولئك الذين يحاولون ان يتجاهلوا الأمثال والحكايات والأغاني التي يرددونها كل يوم . هل نستطيع أن نتناسى هذا الواقع جملة وتفصيلا ونقبع بين رفوف المكتبات ودواوين الشعر الجاهلي ومعاجم اللغة الفصحى ؟ اننا بذلك نرفض ذاتنا ونتنكر لأنفسنا . ومثل أولئك الذين يتجاهلون مأثوراتهم وآدابهم الشعبية كمثل النعامة تدس رأسها في الرمل . وان نحن تجاهلنا هذه الثروة الحضارية وأهملناها فنحن الخاسرون ، وسيأتي اناس غيرنا من الشرق والغرب يلتقطونها من مظانها لاحتضانها ودراستها . اذا أليس من الاولى ان نحتضنها ونحنو عليها ونتبنى دراستها في مؤسساتنا العلمية ؟ فنحن أحق بها وأقدر على فهمها

وتقديرها ، ونحن أحوج ما نكون الى فهم أنفسنا وربط حاضرنا بماضينا . فمأثوراتنا وأدابنا الشعبية صورة لماضينا ووثيقة تاريخية وحضارية وأمانة في أعناقنا يجب أن نسلمها للأجيال القادمة على أكمل وجه وعلى أحسن صورة .

ومما يحز في النفس ان الكثير منا يفتحون بيوتهم وقلوبهم ويجودون بكل ما لديهم لأى شخص غربي يفد الينا لدراسة اللهجات والمأثورات الشعبية . وعلى رغم أن كفاءات هذا الشخص الأجنبي ونواياه موضع ريبة وسؤال ، فان الناس عندنا لديهم ولع غريب وثقة عمياء بالأجانب . أما ابن البلد حينما يحاول دراسة هذه الموضوعات من منطلق المسئولية وخدمة الوطن فانه لا يجد أمامه سوى العراقيل وعدم التجاوب ، بل السخرية في بعض الأحيان فنحن ينطبق علينا المثل القائل « زامر الحي لا يطرب » .

واذا كان المجتمع يمر بمرحلة تطور سريع وتغير مفاجيء ، كما هي الحال بالنسبة لبلدان الخليج والجزيرة العربية ، فان جمع المأثورات والأدب الشعبي يصبح أمر ملحا لا يمكن ارجاؤه ، ويتحتم علينا أن نوليه عناية خاصة لسببين : اولا حتى لا تنعدم الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، وثانيا حتى لا يغيب حملة هذه المأثورات والآداب عن مسرح الحياة ويندثر معهم ما ورثوه عن اسلافهم من اشعار وأمثال وحكايات وعادات وتقاليد وما الى ذلك .

ولا شك ان التغير الجذري الذي يمر به مجتمع الجزيرة اليوم ، وما نتج عنه من تحوير في النسيج الاجتماعي والبنية الاقتصادية ، وكذلك المد الحضاري المعاصر وما صاحبه من وسائل الترفيه والاعلام الحديثة كل هذه التيارات العارمة تكاد تكتسح مأثوراتنا وآدابنا الشعبية وتوشك ان تجتث أصولها وتطمسها تماما .

عوامل التنكر للأدب الشعبي والانصراف عن دراسته :

نناقش الآن أهم الدواعي والملابسات التي تقف حجر عثرة في سبيل تقدم الدراسات الشعبية في الوطن العربي بوجه عام .

١ ـ **العامل اللغوي** : يرى بعض الباحثين ان في دراسة الأدب الشعبي خطرا على اللغة الفصحى . وقد يغرب عن أذهان هؤلاء أن الدعوة الى نبذ الآداب العامية ورفض دراستها فيه ضرر بالغ الخطورة وخسارة فادحة يستحيل تلافيها بعد فوات الأوان . فدعواهم هذه تعيق البحوث العلمية النافعة في هذا الميدان ، وتعرقل مساعي المتخصصين في هذا المجال ، بينما هي في الحقيقة لا تغني فتيلا في محو الأمية واستئصال العامية من أفواه الناس . كذلك فهى لا تجدي شيئا في احياء اللغة الفصحى وبعثها لغة للتخاطب . ويا حبذا لو أن كل انسان عربي من المشرق

الى المغرب يصبح انسانا مثقفا يتكلم العربية الفصحى بطلاقة في البيت والشارع والمقهى . ولكن هذه أحلام وأماني تتحطم على صخرة الواقع الذي نعيش فيه . ان وسائل رفع مستوى الثقافة بين الناس وتشجيعهم على استعمال اللغة الفصحى كثيرة معلومة ، منها فتح المدارس وتشجيع التعليم وتطوير المناهج ، أما التهجم على تراث الشعب الفكرى والفني فهو نتيجة التحيز الأعمى ودليل ضيق الأفق ، ولن يؤدي في النهاية الا الى خلق هوة سحيقة بين طبقة المثقفين وعامة الناس . ان انعاش اللغة العربية الفصحى ورفع مستوى الثقافة بين الناس يجب أن يتم وفق خطة واقعية وبرنامج مدروس . وكما أن هذا لا يتنافى قطعيا مع دراسة المأثورات الشعبية ، فانه لا يمكن تحقيقه بتجاهل اللغات العامية وآدابها . فهنالك أناس كثيرون على مدى القرون الماضية زموا بأنوفهم واستهجنوا شعر العامة ومجو نظمه وحذروا الناس منه . غير ان هذا التعالي لم يؤثر على الأدب الشعبي ولم يجد شيئا في بعث العربية الفصحى ورفع مستوى الثقافة لدى الانسان العربي .

هذا ومن المسلم به انه توجد لدى كل أمة من الأمم لغتان على الأقل : لغة عامية ولغة رسمية . وانه مهما يرتفع مستوى التعليم لدى الأمة فان نسبة عالية من أفرادها تظل تستخدم اللغة العامية لا أداة للتخاطب حسب ، بل ايضا وسيلة للتعبير الفني وصياغة الأمثال والحكايات والأقوال المأثورة التي يتناقلها الناس مشافهة ، والتي يعني بجمعها ودراستها علماء النفس والاجتماع واللغة والفلكلور وغيرهم من المتخصصين بمختلف العلوم الانسانية والاجتماعية .

ولابد من التنبيه هنا على أن هناك بون شاسع بين الدعوى الى هجر الفصحى واستبدالها بالعامية والدعوى الى دراسة الأدب الشعبي واللهجات . وعلينا ان نحترس من الخلط بين هذين الموقفين المختلفين تمام الاختلاف . فالموقف الأول موقف باطل ومشبوه ، اما الموقف الثاني فهو موقف علمي موضوعي نزيه لا غبار عليه . وليس هناك من خطر يهدد الفصحى من جراء دراسة الأدب الشعبي واللهجات ، بل ان مثل هذه الدراسة قد تفيد الفصحى وآدابها فائدة كبيرة . وهذا ما نحاول البرهنة عليه عن طريق دراسة الشعر النبطي وتسخير هذه الدراسة في خدمة قضايا الشعر العربي القديم .

٢ ـ **العامل السياسي** : وهناك ايضا من يقول ان في دراسة الأدب العامي خطرا سياسيا وأن دراسته فكرة استعمارية صدرها لنا الغرب بقصد تفتيت الأمة العربية . وللرد على هؤلاء نود ان نشير الى ان اللغة ، بدون شك ، عامل مهم من عوامل الوحدة السياسية ، الا انها في حد ذاتها ليست ضرورية . مثال ذلك ان الهند والصين وروسيا كلا منها دولة قوية متماسكة على رغم تعدد الأجناس

واللغات في كل منها . أما دعوى ان دراسة الآداب الشعبية فكرة استعمارية فهى دعوى غير صحيحة . لاشك ان الاستعمار يحاول ان يستغل العلوم لصالحه ليس فقط علم الفلكلور (أى علم دراسات الآداب العامية) بل العلوم الأخرى كعلم اللغة والاجتماع والتاريخ وغيرها . وموقفنا تجاه ذلك يجب الا يكون محاربة هذه العلوم لأن الاستعمار استطاع ان يسخرها لصالحه ، بل علينا ان نستغل نحن بدورنا هذه العلوم لمحاربة الاستعمار والواقع اننا لو استعرضنا تاريخ الاهتمام بالمأثورات والآداب الشعبية لوجدنا في ذلك ما يدحض الادعاء بأن الدراسات الشعبية فكرة استعمارية وكذلك دعوى ان الاهتمام بالآداب الشعبية فيه قضاء على الأدب الرفيع او الأدب الرسمي المكتوب بالفصحى . وهذا ما سنوضحه الآن .

بدأ الاهتمام بالآداب الشعبية في أوربا منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي تحت تأثير الحركة الرومانسية التي هي أعظم حركة أدبية شهدتها أوربا ، والتي نشأت كرد فعل على تسلط فرنسا السياسي والحضاري . ولقد كان للحروب التي قادها نابليون دور هام في اذكاء الشعور القومي والروح الوطنية لدى الشعوب الاوربية ، خصوصا في المانيا التي كانت تعاني من التمزق السياسي . فلقد أثارت هذه الموجة الامبريالية مخاوف المفكرين الألمان . وخشوا ان تقضي على المعالم القومية وتطمس التراث الشعبي في المانيا . لذا انشغل الكتاب والمفكرون الألمان في تلك الفترة وأخص منهم الشاعر العظيم يوهان جوته والفيلسوف المرموق يوهان فون هردر ـ بالبحث عن جذورهم القومية وأصولهم الحضارية ، وألحوا على جمع كل ما له صبغة شعبية أو طابع محلي . وتنافس الشعراء والأدباء في استلهام موضوعاتهم من أدب الشعب وتقاليده ، وتصوير الحياة الشعبية بما تحويه من جمال وبساطة ونبل . وحتى ذلك الوقت كانت ألمانيا تتكون من امارات ودويلات صغيرة وضعيفة سياسيا ، وكانت فرنسا هي التي تحتل مركز السيادة السياسية والصدارة الحضارية في أوربا . وكانت الطبقات الارستقراطية في المانيا وغيرها من دول اوربا تميل الى التشبث باللغة اللاتينية وآدابها وتبني الثقافة الفرنسية . وكان لحماس الأخوين جريم وجهودهما في مجال الدراسات الشعبية أثر فعال في دفع الشعب الألماني الى كسب ثقته بنفسه واعتزازه بتراثه . والعودة الى جذوره القومية وأصوله الحضارية .

ولقد استجابت بقية الدول الاوربية لهذا التيار الرومانس القومي ، وتبارى العلماء في مختلف ميادين المعرفة الانسانية للبحث عما سموه عقلية الشعب ، أو نفسية الشعب ، من اجل تأكيد وجود وحدة قومية وحضارة مشتركة تربط بين أفراد كل أمة بغض النظر عن توزيعهم الجغرافي او انتمائهم الطبقي . ولم يكن ذلك

الشعور الوطني المتوقد مقصورا على التعبير عن الحنين الى الماضي القومي التليد ، بل تعدى ذلك الى احياء اللغات المحلية المهجورة ، كاللغة الايرلندية واللغة الفنلندية وغيرهما .

وفنلندا لها تاريخ عريق في الدراسات الفلكلورية ، ولكن لا يمكن بأى حال من الأحوال ان نقول أن هذه الدويلة الصغيرة دولة استعمارية . بل نقول خلافا لذلك ، ان الدوافع وراء اهتمام فنلندا بالدراسات الشعبية هو أن الاستعمار السويدي ومن بعده الاستعمار الروسي كادا أن يقضيا على حضارتها وتراثها .

وفي الوقت الراهن يجب الا يغيب عن أذهاننا الدور الهام الذي تضطلع به حركة احياء التراث الفلسطيني والمحافظة عليه كسلاح من أسلحة الكفاح الوطني ضد حركة الاستيطان الصهيوني . ولعل من نقاط الضعف المهمة التي تعاني منها الدولة الصهيونية افتقارها للتراث الشعبي الذي يمنحها الذاتية الوطنية والسمة القومية . لذلك نجدها تحاول سرقة تراث الفلسطينيين اضافة الى أرضهم فتدعى لنفسها الرقصات والأزياء والأكلات الشعبية الفلسطينية .

والواقع أن المأثورات والآداب الشعبية في البلاد العربية ليست عامل فرقة وعنصر تفتيت ، كما يرى بعض الباحثين ، بل هي من أقوى عوامل الائتلاف وأبرز عناصر الوحدة . وهذه الوحدة التي نتحدث عنها ليست وحدة وهمية أو مفتعلة أو مفروضة من لدن الجهات الرسمية ، بل هى وحدة حقيقية وطبيعية تصهر أبناء الأمة العربية على اختلاف مشاربهم في بوتقة واحدة وتجعل منهم أمة قوية متماسكة . وهذه الاختلافات البسيطة التي نراها على السطح ما هي الا تشكيلات على نفس النمط وايقاعات على نفس النغم . فالأمثال والحكايات التي نسمعها على ساحل الخليج هي تلك التي نسمعها على ساحل المحيط . الأعياد هي الأعياد والطقوس هي الطقوس . كذلك الحلى والأزياء والأغاني والرقص ان لم تكن متفقة فهى متشابهة . والسير الشعبية كسيرة عنترة والزير سالم وأبي زيد الهلالي ينشدها المغنون الشعبيون في المقاهي والأماكن العامة في مختلف أرجاء الوطن العربي الكبير . وكلما أمعنا النظر في هذه الحقائق تبين لنا أن الحدود السياسية التي وضعت لتجزئتنا وفصل بعضنا عن بعض ما هي الا خطوط وهمية لا حقيقة لها في الواقع الحضاري . بل ان الانسان ليأخذه العجب حينما يرى ما نعانيه من تمزق سياسي مقارنا بتلاحمنا الحضاري والشعبي . فالوحدة التي فشلنا في تحقيقها سياسيا هي قائمة بيننا حضاريا وشعبيا .

وأنا هنا لا أنفي وجود شيء من الاختلاف والفوارق بين المأثورات والآداب الشعبية من قطر لآخر في وطننا العربي الكبير ، لكن الحديث الشريف يقول

« اختلاف أمتي رحمة » والاختلاف أمر طبيعي يحتمه عامل الزمان والمكان . وحتى في البلد الواحد ، كالمملكة العربية السعودية ، نجد اختلافا بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . والشيء الذي ينبغي أن نعيه ونتنبه اليه ان الوحدة تكون أقوى وأمتن اذا كانت مبنية على التكامل والتكافل لا على التناظر والتماثل . فالتماثل يعني الرتابة الباهتة المملة ، والتكامل يعني التنوع والتلوين والعمق والثراء .

٣ ـ **العامل الفني** : وهناك من يقول أن الأدب الشعبي أدب بدائي فطري لا يرقى الى مستوى الأدب المكتوب ولا يستحق كل هذه الجهود المبذولة لجمعه ودراسته . صحيح أن الأدب الشعبي أقرب الى الفطرة من الأدب المكتوب ، ولكن هذا لا يعني أنه أقل عمقا وثراء . فبينما العمل المكتوب يعبر عن شخصية الكاتب ، أي الفرد ، فان الأدب الشفهي يعبر عن شخصية الشعب ، ويرصد وجدان الأمة . واذا كان هناك أدب عالمي بالمعنى الصحيح فانه الأدب الشفهي ، فالعناصر الفنية التي تتألف منها الحكاية الشعبية كقسوة زوجة الأب وتفوق الابن الأصغر والكنوز والجان وما الى ذلك نجدها تنتشر من الشرق الى الغرب متخطية جميع الحواجز اللغوية والسياسية والحضارية . ولا شك أن هناك أعمالا مكتوبة اكتسبت شهرة عالمية ولكن في كثير من الأحيان يكون ذلك اما عن طريق الدعاية أو عن طريق المسرح أو السينما أي أن يمثل العمل على خشبة المسرح أو الشاشة .

ثم انه لابد للعمل المكتوب أن يترجم الى لغات أخرى حتى يصبح أدبا عالميا . لكن المدهش حقا ان هناك أجناسا من الأدب الشفهي تنتشر بصورة مذهلة في جميع أنحاء العالم بدون دعاية وبدون ترجمة بل بصورة تلقائية وسريعة أيضا .

ثم انظر الى الآداب المكتوبة المستقاة من الأدب الشفهي ، مثل ملاحم هومر وحكايات ايسوب وكليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وغيرها كثير . هل هناك أعمال أدبية تضاهي هذه الأعمال ؟ ولولا جمال الأدب الشعبي لما تسابق أدباء كبار أمثال الشاعر الألماني يوهان جوته والأديب الاسكتلندي وولتر سكوت لاستلهام هذا الأدب الشعبي .

وهناك حقيقة أساسية نحب أن ننبه اليها وهي أن الأدب المكتوب يصبح بقاؤه مضمونا فور طبعه على الورق ، بغض النظر عن جودته ، أما الأدب الشفهي الذي يعتمد على النقل والرواية ويعيش على الألسن والشفاه فلا يمكن له أن يبقى ويستمر وجوده الا اذا كان أدبا جيدا جديرا بالنقل يتشوق الناس الى روايته وسماعه ، والا لأهمل وأمحى من الذاكرة أي أن خلود الأدب الشفهي وبقاؤه مرهون بجودته واقبال الجمهور عليه .

والحقيقة الأخرى التي ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا هى أن الكتابة قد تصبح حرفة تمارس من اجل الكسب المادي دون ان تكون لها صلة حميمة بجوانب الحياة الأخرى . أما الأدب الشفهي فهو رسالة قبل أن يكون مهنة . وكلنا نعرف كيف ان القبائل الأمية في جزيرة العرب قديما وحديثا تعد التكسب بالشعر مما يحط من قدر الشاعر ويفقده ثقة المستمعين . فهم يرون أن الكسب المادي بمثابة الدنس الذي ينجس الكلمة ويفقدها قدسيتها وفعاليتها . أضف الى ذلك أن الأدب الشفهي جزء من الحياة اليومية . ففي المجتمع التقليدي لا يمكن أن يكون هناك عمل بدون غناء ، أو سمر بدون حكايات . وكذلك الحال بالنسبة للزواج والأعياد والمناسبات الأخرى .

ومن الأدلة على أن الأدب الشعبي أكثر عمقا وثراء من الأدب المكتوب ما نلاحظه من أن الأدب المكتوب موضوع قائم بذاته ضعيف الصلة بفروع المعرفة الأخرى . أما الأدب الشعبي فانه وثيق الصلة بالعلوم الأخرى كعلم النفس . فاذا كانت الأحلام تدل على شخصية الفرد ، فان الحكايات الشعبية هي أحلام اليقظة التي تكشف شخصية الأمة . والأدب الشعبي له صلة بالتاريخ ، ولا سيما في المجتمعات الأمية التي تفتقر الى الوثائق الخطية ، وكذلك له صلة بعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الحضارية حيث انه مرآة تعكس حضارة المجتمع وعاداته وتقاليده .

كذلك نجد ان الأدب الشعبي كموضوع متخصص له نظرياته ومناهجه يتقدم بكثير على الأدب المكتوب . فمعظم المناهج والنظريات التي يمارس تطبيقها أساتذة النقد الأدبي يرجع أصلها الى الدراسات الفلكلورية . خذ مثلا المنهج النفسي في تفسير الأدب ! من المعروف أن الكثير من المفاهيم الأساسية كعقدة أوديب ومفهوم النمط الأصلي **archetype** وغير ذلك من المفاهيم التي نادى بها كارل يونج وسغموند فرويد وغيرهما من أساطين علم النفس أتت نتيجة لدراسة وتحليل الخرافات والحكايات الشعبية . وخذ المنهج البنائي في النقد الأدبي ! اول من طبق هذا المنهج هو عالم الفلكلور الروسي المشهور فلاديمير بروب في تحليله لبنية الحكايات الشعبية الروسية التي جمعها زميله أفانسيف ، ثم تطور هذا المذهب على يد عالم الفلكلور الفرنسي ليفي ستروس والذي طبقه على دراسة الميثولوجيا البدائية .

وخذ مثلا المنهج المقارن ! أول من طبق هذا المذهب علماء الفلكلور الألمان والانجليز مثل جيمز فريزر في كتابه (الغصن الذهبي) وتطور هذا المذهب على يد علماء الفلكلور في فنلندا أمثال الياس لونروت وجولويوس كرون وابنه كارل وآنتي

آرني وغيرهم . لذلك فانه لا يمكن أن تتقدم الدراسات الأدبية هنا في العالم العربي ما دمنا نحرم دراسة الأدب الشعبي والاعتناء بالمأثورات الشعبية ونعتبرها أمورا تافهة لا تستحق الوقت والجهد ، وأن دراستها تشكل خطرا على الفصحى .

ومما يدل على افلاسنا الفكري في مجال النقد الأدبي أننا لا نزال بعيدين عن روح الاستكشاف والتجديد . فجميع آرائنا في هذا المجال تتسم بالطابع التقريري التعليمي ولا نستطيع التفرقة بين الفكر الأيديولوجي والرؤية الموضوعية . فكلنا ملتزمون أيديولوجيا بمبدأ انعاش اللغة العربية الفصحى والمحافظة عليها . ولكن هذا المبدأ ينبغي ألا يقف حاجزا بيننا وبين الرؤية الموضوعية للأمور ، كأن يعتقد بعضنا أن اللغة هي الفيصل الذي نحكم به على جودة الأدب ، فيرفض الأدب الشعبي لا لشيء الا لأنه لم ينظم بلغة عربية فصحى .

فالشيء الثابت أن اللغة بمعناها الحقيقي ككلمات وقواعد نحوية وصرفية ، يستحيل أن تكون هي المقياس الموضوعي لتقييم جودة الأدب ومكانته الفنية والدليل على ذلك تعدد اللغات التي تكتب بها الآداب العالمية . أما المقياس الحقيقي لوجودة الأدب فهو استعمال اللغة ـ أى لغة ـ بمهارة وأسلوب بليغ وطريقة مؤثرة للتعبير عن خلجات النفس البشرية والمشاعر الانسانية والمثل العليا ، اضافة الى سعة الخيال وصدق العاطفة وحرارة الشعور .

والنقطة الأخيرة التي اريد ان أثيرها في هذا الصدد هي أن معظم أولئك الذين يطلقون أحكاما نقدية جائرة على الأدب الشعبي هم في الغالب أبعد الناس عن محيط هذا الأدب وأقلهم قدرة على فهمه وتذوقه . ومن الأمور الأساسية والمسلم بها في النقد الأدبي أن أدب أي أمة هو كائن حي قائم بذاته يستمد وجوده وعناصر بقائه من ظروف هذه الأمة ومحيطها الاجتماعي والحضاري ، مما يضفى عليه قيما ومفاهيما خاصة به قد لا تنطبق على غيره من الآداب . لذا فان مهمة الناقد تنحصر في البحث عن الأسرار الجمالية والأساليب الموضوعية التي تجعل هذه الأمة أو تلك تتشبث بأدبها وتعتز به ، وتجد فيه تعبيرا صادقا لتطلعاتها ومثلها الفكرية والخلقية سواء كان هذا الأدب شفهيا أم تحريرا ، وسواء أكان عاميا أم فصيحا . صحيح أن هناك نماذج جيدة وأخرى رديئة في أي انتاج أدبي ، أما أن يتجرأ الناقد على تسفيه أمة بكاملها بأن يزدري أدبها ويرفضه جملة وتفصيلا فهذا تعسف واضح وخطأ فاحش لا يقبله العقل ولا يرضاه الذوق السليم ، اذ أنه ليس من حق الناقد أن ينصب نفسه حكما على الشعوب ومفاهيمها الأدبية . فالحكم على أدب أي شعب من الشعوب يجب ان يترك لهؤلاء الذين تتحرك مشاعرهم لهذا الأدب والذين لديهم القدرة على فهمه وتذوقه والذين يجدون فيه انعكاسا لواقعهم

وتجاربهم . ومن البدهي انه لا يمكن الحكم على الأدب من الخارج على يد أناس لا يفهمون لغته وأساليبه ولم يستشفوا صوره وأخيلته ولم يعايشوا ظروفه ولم يفهموا وظيفته الاجتماعية ووسائل نظمه وأدائه وتداوله .

وليس من الموضوعية في شيء ان يتربع الكاتب أو الناقد في برجه العاجي ويصم أذنيه ويوصد الأبواب على نفسه ، ويطل على الناس من نافذة ضيقة ليسفه آراءهم ويسخر من مفاهيمهم ، ويملي عليهم بطريقة اعتباطية نظرياته ، حيث ان هذا المذهب التقريري لا يتفق مع مناهج البحث الحديث الذي يبني نتائجه على الملاحظة والاستقراء . فمهمة الباحث هي دراسة الظواهر الانسانية من جميع الزوايا وبدون حكم مسبق حتى يتسنى له فهم هذه الظواهر فهما سليما أساسه البحث عن الحقيقة المطلقة . ولا شك أن هذا هدف مثالي يستحيل تحقيقه أحيانا اذ انه ليس من السهل على الانسان ان يتجرد من نزعاته الذاتية وظروفه الاجتماعية التي قد تحجب عن بصيرته بعض الجوانب المهمة من الموضوع الذي يزمع دراسته . غير انه يجب على الباحث ان يتوخى الموضوعية قدر الامكان وان يسعى جاهدا لتجنب الخلط بين آرائه الشخصية من جهة والحقائق العلمية من الجهة الأخرى . والناقد الأدبي أحوج ما يكون لتطبيق هذه المقاييس ، لأن وظيفته ليست فقط ان ينقل الى قرائه احساساته وانطباعاته الأولية تجاه العمل الأدبي ، بل عليه أن يقوم هذا الأدب على اساس موضوعي حتى يتجنب الكثير من المزالق التي يقع فيها هؤلاء الذين يتوقعون من أى عمل أدبي يقع تحت ايديهم أن يكون صورة طبق الأصل لما يخيل اليهم أنه أدب رفيع ، أو لما قرأوه في السابق من نماذج أدبية معينة تركت أثرا في نفوسهم . ولنضرب مثلا لذلك بعض المستشرقين الأوائل الذين حاولوا دراسة الأدب العربي من زاوية ضيقة فلقد فشل هؤلاء المستشرقون في فهم أدبنا وحكموا عليه بأنه أدب فج ضحل مهلهل لا يضاهي ملاحم هومر او قصائد ملتون أو مسرحيات شكسبير . حتى أن بعضهم كـ « مارجوليوث » تجرأ بالحكم على الشعر الجاهلي أنه شعر موضوع منتحل .

٤ ـ **عوامل أخرى** : وهناك عوامل أخرى تعيق عملية جمع المأثورات الشعبية ودراستها في العالم العربي عامة والمملكة العربية السعودية بشكل خاص . ومن أهم هذه العوامل عدم توفر الخبرة المحلية طبعا هناك أناس متحمسون لجمع المأثورات الشعبية ولكن الحماس وحده لا يكفي ، والخبرة ضرورية كي تكون الجهود المبذولة ناجحة ومثمرة . وفي هذا المجال بالذات نجد ان مدى الاستعانة بالخبرة الأجنبية محدودا جدا ، وقد تأتي بنتائج عكسية . كذلك من العوامل التي تعرقل حركة جمع المأثورات الشعبية عدم وعي الناس لأهمية جمع هذه المأثورات

وعدم استيعابهم للهدف وراء ذلك . فالبعض يعتقد أن القصد من وراء جمع المأثورات الشعبية هو حفظها في خزانات زجاجية حتى يتفرج عليها الزوار الأجانب . ونظرة الكثير منا تجاه المأثورات الشعبية يشوبها الكثير من الرومانسية والمثالية . فهي في نظرهم تحف وطرائف وأشياء جميلة لا غير . كل هذه اعتبارات لا بأس بها ولكنها ليست هي الاعتبارات الأساسية التي يضعها الباحث في ذهنه حينما يقوم بجمع المأثورات المادية والقولية وتصنيفها ودراستها ، اذ ان هدف الباحث في المقام الأول هو فحص هذه المواد ودراستها على أنها مصدر من مصادر البحث العلمي الموضوعي المحكوم بنظريات ومناهج محددة . وفي نظري أننا حتى الآن لم نتخط الهدف الاعلامي الى الهدف العلمي الصحيح فيما نقوم به من محاولات لجمع المأثورات الشعبية .

رواد الدراسات الشعبية في المملكة العربية السعودية :

على الرغم من العراقيل التي ذكرت بعضا منها فان هنالك بعض الجهود التي بذلت للحفاظ على المأثور المادي والقولي في الجزيرة العربية . وقد تصدى عدد من الكتاب لجمع ودراسة المأثورات والآداب الشعبية في المملكة العربية السعودية ، كل قدر طاقته وحسب امكاناته . ويحظى الشعر النبطي بالنصيب الأوفى من هذه الجهود . الا أن معظم ما تم انجازه في هذا الشأن يتسم بعدم المبالاة ، ويغلب عليه سوء الاخراج وقلة تحري الدقة ، مما يفقده قيمته كركيزة أساسية من ركائز البحث العلمي وكمصدر موثوق يطمئن اليه من يود دراسة هذا اللون من ألوان الأدب الشعبي . بل ان الأمر تعدى ذلك وتحولت القضية الى عملية تجارية بحتة يرجى منها الربح السريع دون التفكير في خدمة العلم . حتى ان البعض ـ طمعا في الكسب ـ يضرب بحقوق الطبع عرض الحائط ولا يتورع عن اختلاس جهود الآخرين وانتحال ما بذلوا عناء وجهدا في جمعه وطبعه لينشره تحت اسمه ويخرج به الى الناس وكأنه عمل جديد ، بينما هو لا يعدو أن يكون في الحقيقة تحريفا وتزييفا لجهود الرواد الأوائل . وهذا مما يسيء الى أدبنا الشعبي اساءة بالغة الأثر ومما يدعو الأجيال القادمة التي لم تغترف هذا الأدب من منابعه الصافية العذبة الى انكاره والعزوف عنه والاشمئزاز منه . فهذا الشعر كنز روحي وثروة وطنية عظيمة اذا ما استغل استغلالا سليما . ودرس دراسة علمية رصينة .

الا ان هناك محاولات أخرى غير تلك التي ذكرناها تتسم بالجد وتنطلق من منطلق الواجب الوطني والمسؤولية الفكرية . ويمكننا أن نشير في هذا الصدد الى الأعمال القيمة التي أتحفنا بها الأساتذة الأفاضل خالد الفرج وعبدالله بن محمد بن خميس وعبد الكريم الجهيمان ومحمد بن ناصر العبودي وسعد بن جنيدل وعبد

الرحمن ابن عقيل والدكتور عبدالله الفوزان ومحمد ابن احمد العقيلي وعاتق بن غيث البلادي ومنديل الفهيد ومحمد القويعي ، وغيرهم .

واضافة الى مؤلفاتهم الكثيرة ، قام هذا الرعيل من الرواد بدور فعال في سبيل الدفاع عن الأدب الشعبي وابراز قيمته العلمية ومكانته الأدبية .

العمل الميداني وأسس البحث العلمي في الدراسات الشعبية :

لا غرو ان هؤلاء الرواد بذلوا مساعي حميدة وجهودا مشكورة لدفع حركة الجمع والمحافظة على الأدب الشعبي ، وتوعية الآخرين وتنبيههم الى أهمية هذا الأدب . الا أن أعمالهم لا ترقى الى المستوى العلمي المطلوب ، حيث أنها لا تخضع لمناهج معينة ، ولا تحكمها أطر نظرية محددة ، ولا تساير التيارات الفكرية المعاصرة . ففي الوقت الحاضر أصبحت دراسة الأدب الشعبي علما قائما بذاته له أصوله ومناهجه . وأصبح العمل الميداني جزءا أساسيا من هذه الدراسة .

فلقد اعتاد علماء الأدب الشعبي في السابق على جمع النصوص العارية من الشروح ، المجردة من الايضاحات ، الا أنه تبين لهم فيما بعد أن ذلك لا يفي بالغرض المنشود ، اذ أنه لابد من أن تشفع هذه النصوص بالتفسيرات والتعليقات والمعلومات الوافية عن المؤ دين ، وسياق الأداء ، والعلاقة التي تربط المؤدي بالمستمعين / المشاهدين . فهذه الظروف والملابسات مشحونة بالمعطيات الفكرية والعاطفية والاجتماعية التى تضفى على النص ألوانا وأبعادا يستحيل فهمه وتقييمه بدونها . فالهدف من العمل الميداني هو دراسة الأدب الشعبي عن كثب في محيطه الطبيعي للتعرف على الخصائص الفنية التي تميزه عن الأدب المكتوب من حيث الشكل والمضمون والوظيفة الاجتماعية وغير ذلك من المسائل العلمية الدقيقة التي تشغل بال العلماء في وقتنا الحاضر . ويهدف البحث الميداني أيضا الى جمع المعلومات الضرورية عن حياة المؤ دين الاخباريين المتميزين ودراسة أحوالهم المعيشية لتحديد مصادر الهامهم والتعرف على مكانتهم الاجتماعية . فعملية البحث الميداني ليست عملية جمع عشوائية ، بل انها عملية منظمة هادفة يقصد منها استشفاف ظواهر الأدب الشفهي وغيره من مظاهر الفن الشعبي لاستجلاء معالمها واستنباط معايير نقدية تتلاءم وطبيعتها الفنية ووظيفتها الاجتماعية .

ومن الأشياء الأساسية التي لابد أن يأخذها الباحث في الحسبان ويفحصها بدقة عملية الانشاء والانشاد والانتشار الشفهي **THE ORAL PROCESS** . فالأدب الشفهي مثلا يختلف عن الأدب التحريري في أنه لا ينتقل عن طريق الكلمة المكتوبة بل عن طريق الكلمة المنطوقة ، أي مشافهة ، لذلك فان النصوص الشفهية تختلف عن النصوص التحريرية في أنها مرنة وغير ثابتة . فهى عرضة لتغير دائم

وتشكل مستمر ، فينتج عن ذلك روايات متعددة لنفس النص . فمهمة الباحث أن يدرس كيف يتم هذا التغير وما العوامل التي تؤثر فيه . لذا فان عليه ألا يكتفي بتسجيل رواية واحدة لحكاية ما أو لقصيدة ما بل عليه أن يجمع كل ما يعثر عليه من روايات وأن يجمع نفس الحكاية من عدة أشخاص ، بل حتى من نفس الشخص على فترات متفاوتة ، حتى يتسنى له رصد التغيرات التي يتعرض لها النص والعوامل التي تؤثر في ذلك .

اضافة الى تلك الأمور المنهجية والنظرية ، هنالك مسائل أخرى يجب ألا تفوت الباحث ملاحظتها وتسجيلها مثل مكان الجمع وتاريخه وكذلك اسم الاخباري أو المؤدي وجنسه وعمره وعنوانه وعمله ، أين ولد ؟ أين قضى معظم حياته ؟ متى وأين وممن اكتسب المادة التي تم جمعها منه ؟ وغير ذلك من المعلومات الأخرى التي يمكن الحصول عليها عن حياته وظروفه الاجتماعية ، لأن دراسة حياة الاخباري وأسفاره وتنقلاته تفيدنا كثيرا في التعرف على مصادر الأدب الشعبي وسبل هجرته ووسائل انتشاره .وفي وقتنا هذا تحتل دراسة الأدب الشعبي في سياقه الأدائي واطاره الاجتماعي مكانة مرموقة في الأوساط العلمية ، ولا سيما في حقلي الأدب والفلكلور ، وذلك بعد أن نجح العالمان الأمريكيان ملمان باري -MIL MAN FARRY والبرت لورد ALBERT LORD في فرض نظريتهما التي سمياها نظرية الصياغة الشفهية ORAL FORMULAIC THEORY وهي نظرية تعد الأن من أحدث النظريات في مجال البحث الأدبي وأكثرها رواجا . والعلماء الغربيون الأن يتجشمون المصاعب الجمة ويتكبدون الخسائر الفادحة للقيام برحلات علمية الى المجتمعات التي توجد فيها طبقات أمية تحتفظ بتراث شعري شفهي من أجل دراسته .

وحيث انه لا تزال هنالك في مجتمعنا قلة قليلة وبقية باقية من الأميين في البادية والقرى النائية ممن لا يزالون يحفظون هذا الشعر ويلقونه بالطريقة التقليدية ، فانه يجدر بنا أن نغتنم هذه الفرصة النادرة وأن نسارع الى دراسة هذه الشرائح الاجتماعية التي توشك أن تزول تماما من مسرح التاريخ الانساني وتختفي الى غير رجعة . ولو أدينا واجبنا هذا على الوجه المطلوب سنكون قد أسهمنا بشكل فعال وأصيل في تطوير الدراسات الأدبية واثراء البحوث الانسانية على المستوى العالمي . كما أن ذلك مما يضمن الخلود والشهرة العالمية لأدبنا الشعبي كغيره من الآداب الشعبية التي حظيت بنصيب وافر من الدراسة والتحليل ، مما أتاح الفرصة للمفكرين والمثقفين في جميع أنحاء العالم للتعرف عليها وتذوقها وتقديرها .

مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية :

ان جمع الأدب الشعبي والحفاظ عليه مسؤولية ضخمة لا يمكن أن يضطلع بها فرد أو بضعة أفراد ، بل ينبغي أن تتصدى لها هيئات قومية ومؤسسات علمية كبيرة كالجامعات ومراكز البحوث لتهيء لها سبل النجاح وتوفر لها الامكانات المادية والبشرية اللازمة . ولا نقصد من وراء ذلك التقليل من أهمية الجهود الفردية في هذا الشأن ، الا انها في حد ذاتها غير كافية .

وتلعب جامعة الملك سعود بالرياض دورا رياديا في سبيل المحافظة على مأثورات الجزيرة العربية وأدبها الشعبي . فهى الجامعة الوحيدة التي يوجد فيها متحف للآثار ومتحف للتراث الشعبي لا يضاهيهما متحف آخر في المملكة . وجامعة الملك سعود هي الجامعة الوحيدة في المملكة التي تدرس فيها مادة الأدب الشعبي ، كما تبنت في السابق خمس ندوات للتراث الشعبي .

اضافة الى ذلك فقد وافق المجلس العلمي بالجامعة في ربيع الأول ١٤٠٣هـ على تمويل مشروع تقدمنا به الى مركز البحوث بكلية الآداب يهدف الى جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية . ولا يسعني بالمناسبة الا أن أتقدم بجزيل الشكر للمسؤلين في الجامعة وأهنئهم على سداد رأيهم وبعد نظرهم . وقبل أن أتوسع في الحديث عن هذا المشروع ينبغي أن أوضح ماهية الشعر النبطي .

ما هو الشعر النبطي ؟

الشعر النبطي هو الشعر الذي ينظمه ويتناقله عامة الناس في معظم أنحاء الجزيرة العربية . وهناك خلاف بين المهتمين بدراسة هذا الشعر حول هذه التسمية . يرى البعض منهم أن تستخدم كلمة « البدوى » بدلا من « النبطي » ولكن بما أن هذا الشعر ليس وقفا على البادية دون الحاضرة ، فأعتقد أنه لا يجوز تسميته بالشعر البدوي . ولقد شاعت في الآونة الأخيرة تسميته بالشعر « الشعبي » بدل « النبطي » ولكن اصطلاح « الشعر الشعبي » اصطلاح مطلق غير مقيد ، وعام يمكن اطلاقه على ما ينظم بلغة العامة في أي قطر من أقطار العالم . لذا فان كل شعب يلجأ الى وضع تسمية خاصة بشعره الشعبي كي يميزه عن غيره (كالحميني في اليمن والزجل في بلاد الشام والملحون في بلاد المغرب العربي) . ومنذ عدة قرون عرف شعر وسط الجزيرة العربية بالشعر النبطي . وابن خلدون هو اول من تكلم عن هذا الشعر وقال انه يدعى بالشعر البدوي أو القيسي ، أو الحوراني ، أو الأصمعيات . ولم يورد كلمة النبطي . وأقدم شاهد عثرنا عليه يثبت

استخدام كلمة « نبطي » في معرض الاشارة الى هذا الشعر بيت من قصيدة مخطوطة لأبي حمزة العامرى مطلعها :

طرقت أمامه والقلاص سجودا والنجم هاوى كنه العنقودا

وفي آخر القصيدة وردت كلمة « نبطية » حيث يقول :

الله من بيت وقصيدة شاعر عند الأمور المعضلات حميدا

كالدر الا انها نبطية تحلى على التكرير والترديدا

كما أن الرحالة ويليام بلجريف الذي يدعى أنه جاب أرجاء الجزيرة العربية سنة ١٨٦٢م ذكر الشعر النبطي كما ذكره الرحالة ريتشارد بيرتن الذي زار الجزيرة سنة ١٨٧٨م .

ومعظم الدواوين الشعرية التي طبعت تسمى هذا الشعر بالشعر النبطي ، كديوان النبط لخالد الفرج وخيار ما يبلتقط من شعر النبط لخالد الحاتم .

وكلمة « نبطي » هنا لا تعني ان هذا الشعر يمت بأى صلة للأنباط ، وانما تعني فقط أن لغته عامية وليست فصيحة . ومن المعروف أن كلمة « نبطي » أصلا كانت تعني لغة الأنباط ، ولكن علماء العربية توسعوا في استعمالها فيما بعد حتى أطلقوها على أي لهجة عربية لا تخضع لقواعد اللغة العربية الفصيحة . وأكاد أجزم بأن تلك الطائفة من الكتبة والمتعلمين الذين قاموا بجمع الشعر النبطي وتدوينه في العصور الماضية ـ ولا سيما في منطقة الاحساء ـ قد أطلقوا عليه هذه التسمية كي يميزوه عن الشعر الفصيح .

أهداف مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية : هذا المشروع الذي تقدمنا به ووافقت عليه الجامعة مشكورة يهدف الى اجراء مسح شامل وجمع استقصائي منظم للشعر النبطي . فالمرحلة الأن مرحلة جمع وانقاذ ما يمكن انقاذه قبل أن تفوت الفرصة ويضيع كل شيء . ومتى ما جمعت هذه المادة بصورة منظمة ومكتملة فانها ستوفر للباحثين في المستقبل المادة الأساسية والركيزة السليمة لصياغة النظريات العلمية وتأصيل مناهج البحث . ويتم الجمع عن طريق اللقاءات التي نجريها مع الرواة المتميزين من مختلف المناطق والقبائل . وهذه المادة التي يتم جمعها ستكون مسجلة على أشرطة كاسيت . وسوف يتم التسجيل على أساس علمي هادف وبطريقة منهجية منظمة قائمة على أسس مدروسة تسهل الاستفادة من هذه الأشرطة وتضاعف من قيمتها العلمية . واضافة الى عملية الجمع ، هنالك مسائل علمية محددة تشغل بال المعنيين بالأدب الشفهي سنحاول استجلاءها وهناك طرق مدروسة لاستجواب الرواة والشعراء واستدراجهم للخوض في مسائل تهم الباحثين في هذا الميدان .

وهذه الأشرطة المسجلة سوف تفهرس وتصنف تصنيفا علميا دقيقا منظما وسوف تودع في أرشيف لحفظها وتيسير سبل استعمالها والاستفادة منها من قبل الباحثين . ومنذ أن تمت الموافقة على تمويل هذا المشروع تم تسجيل مالا يقل عن ستين شريطا ، أى ما يعادل تسعين ساعة ، من الحوار مع مالا يقل عن اربعين راوية من رواة الشعر والقصص في بادية الجزيرة العربية ، ولا يزال العمل مستمرا .

ومن الأهداف التي نصبو الى تحقيقها من خلال مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية ايجاد تصور كامل وصحيح للمحيط الحضاري والبيئة الاجتماعية والسياسية التي نشأ فيها الشعر النبطي واستمد منها صوره وأخيلته وأغراضه .

فدراسة هذا الشعر ضمن بيئته الاجتماعية واطاره الحضاري أمر ضروري لاستكناه معالمه الفنية وطبيعته الأدبية التي تميزه كشعر شفهي يعتمد على النقل والسماع قبل ان يكون شعرا تحريريا يعتمد على القراءة والكتابة . وعن طريق فحص الشعر النبطي في سياقه الشفهي سنتوصل الى فهم الخصائص التي يتميز بها عن الشعر التحريري من حيث الخلق والابداع ومن حيث طريقة النظم والأداء والالقاء والارتجال والتداول والحفظ ودور الذاكرة في ذلك . ومن الأمور التي نهدف الى استجلائها ايضا في هذا الاطار الأدائي الشفهي مدى ثبات النص الشعري وتغيره في مجتمع أمي يعتمد على الرواية الشفهية ، وكيف يتغير النص من خلال الرواية الشفهية ، وما العوامل التي تتحكم في هذا التغير ، وما أثر البعد الزماني والمكاني في ذلك . كل ذلك من أجل استنباط معايير نقدية تتلائم مع الصبغة الشفهية والطبيعة الأدبية والوظيفة الاجتماعية والنفسية للشعر النبطي . وأود أن أنبه الى أن الكثير من النقاد يرتكبون خطأ فاحشا في حكمهم على الأدب الشفهي لأنهم يطبقون عليه معايير نقدية ومقاييس فنية لا تنطبق عليه لأنها صيغت أصلا للحكم على الأدب المكتوب الذي يختلف اختلافا جذريا عن الأدب الشفهي .

الخصائص الشفهية في الشعر النبطي :

في هذه المرحلة من مراحل جمع الشعر النبطي ركزنا على المصادر الشفهية وأغفلنا الى حد ما المصادر التحريرية لاعتبارات منهجية وعملية تتعلق بطبيعة الأدب الشفهي وأدائه .

لاشك ان عملية انتقال القصيدة عن طريق الكتابة هي من أضمن السبل للاحتفاظ بالنص الأصلي للقصيدة الى الأبد . ولكن هناك اعتبارات اخرى تجعل الأداء الشفهي أفضل بكثير من الانتقال عن طريق الكتابة . فهناك اختلافات

جوهرية بين النص المكتوب الجامد وبين الرواية الشفهية التي تنبض بالحياة . فانه مثلا يستحيل على شخص غريب عن محيط الشعر النبطي أن يمسك ديوانا ويقرأ فيه ويأمل من وراء ذلك أن يسبر أغوار هذا الشعر ويكتشف أبعاده الحضارية وأسراره الجمالية ، لا سيما أن الخط العربي الذي ابتكر لكتابة العربية الفصحى قد يكون في بعض الأحيان غير مناسب لكتابة الآداب العامية المكتوبة باللهجات المحلية التي فيها من الأصوات والحركات مالا يستوعبه الخط العربي . ومما يضاعف من حيرة القارىء أننا في كثير من الأحيان نجد دواوين الشعر النبطي تعاني من رداءة الطباعة وكثرة الأخطاء وخلوها من التعليقات والحواشي الضرورية لفهم القصيدة ، وتزداد هذه العقبات التي تعيق النطق الصحيح والفهم السليم بازدياد الهوة الحضارية التي تفصل جيل الحاضر والمستقبل عن الأجيال الماضية .

أما في عملية الأداء الشفهي فانه كل مرة يقوم فيها الراوي بالقاء القصيدة يكون نفخ فيها روحا جديدة وأعاد اليها الحياة مرة اخرى . كما أن الرواية الشفهية محكومة بعلاقة ديناميكية بين الراوي والمستمعين يستطيع الراوي من خلالها أن يبرز المعالم الفنية والسمات الجمالية للقصيدة من موسيقى وايقاع وأغراض بلاغية . والقاء القصائد النبطية عادة يتخلله رواية القصص التي توضح الخلفية التاريخية لهذه القصائد والمناسبات التي قيلت فيها .

فالشعر النبطي في جوهره شعر شفهي . أقصد أنه ليس شعرا يقرأ ويكتب ، بل هو شعر ينشد ويسمع في المنتديات والمجالس . لذا ينبغي لمن يريد فهمه فهما حقيقيا أن يجلس الى رواته المعمرين للتحدث معهم عن طرق نظمه والقائه والاصغاء لهم يحكون الوقائع البطولية ويستشهدون بالأبيات الشعرية التي قيلت في تلك المناسبات .

ووجود هؤلاء الرواة معنا خلال التسجيل سيمكننا من جمع المعلومات الضرورية عن حياة الشعراء المشهورين وأحوالهم المعيشية ليس فقط للتعرف على مصادر الهامهم ، بل ايضا للتعرف على مكانتهم الاجتماعية والدور الذي يلعبونه في تحريك الأحداث السياسية والاجتماعية . وسيتخلل تسجيل القصائد أسئلة نوجهها للرواة عن المناسبة التي قيلت فيها كل قصيدة وعما تتضمنه القصيدة من تلميحات وايماءات ورموز ، وكذلك المفردات الغريبة التي انقرضت لانقراض مسمياتها ومناسباتها والصور الشعرية التي قد يستغلق فهمها على معظم الناس في الوقت الحاضر . فالشعر النبطي يحكي وقائع تاريخية وممارسات اجتماعية وأساليب في الحياة قد اندثرت ، ولم يعد يعيها جيلنا الحاضر . فجلاء هذه

الغوامض ضروري لتذوق الشعر النبطي والغوص الى اعماقه وتقديره حق قدره .

وهكذا فان الأشرطة التي نسجلها لن تحتوي على نصوص شعرية فقط ، بل ستتضمن ايضا نصوصا نثرية أحيانا قد لا تقل في قيمتها اللغوية والأدبية عن النصوص الشعرية . كما ستتضمن معلومات قيمة عن مجتمع الجزيرة وحضارتها وتاريخها في العصور الماضية . كما ان حفظ ذلك كله على أشرطة صوتية سوف يوفر لعلماء اللغة ودارسي اللهجات نصوصا حية ناطقة مما يسهل مهمتهم في دراسة لهجات الجزيرة العربية وعلاقتها باللهجات القديمة .

أما المصادر التحريرية من مخطوطات وغيرها فهى لا شك مهمة وضرورية ، حيث أن المصادر التحريرية والشفهية يكملان بعضهما البعض لمن يريد القيام بدراسة مقارنة . وأعتقد أن مهمة البحث عن هذه المخطوطات الشعرية لاقتنائها والحفاظ عليها تقع على عاتق مكتبة الجامعة . وفعلا مكتبة الجامعة تحتفظ ببعض المخطوطات من الشعر النبطي .

وعلى كل فان القصائد المحفوظة في المخطوطات ستظل محفوظة لدى أصحابها ، وقد نتمكن من اقتنائها ، أو قد تجد طريقها الى النشر فيما بعد ، بطريقة أو بأخرى . أما القصائد المحفوظة في الصدور فانها سوف تندثر ـ ان لم تسجل ـ بمجرد أن ينتقل رواتها الى الرفيق الأعلى .

دواعى الاهتمام بالشعر النبطى :

هناك أسباب جوهرية دعتنا الى الالتفات فى الوقت الراهن الى الشعر النبطى دون بقية أجناس الأدب الشعبى ، من أهمها :

١ ـ **الشعر النبطى وثيقة تاريخية وحضارية** : لو القينا نظرة شاملة على مجتمع الجزيرة العربية لوجدنا أن الشعر النبطى من أغنى عناصر التراث وأغزرها مادة وأكثرها التصاقا بواقع الحياة والمجتمع ، اذ أنه يستقى مواضيعه من حوادث وقيم المجتمع وممارسات الناس اليومية . هذا ولا يخفى على أحد أن الحياة فى الجزيرة العربية تسير الآن بخطى سريعة جدا أحيانا يقصر النظر عن متابعتها واللحاق بها . واختفت اليوم عن المسامع والأبصار وسائل وممارسات كانت تحكم حياة اسلافنا وأصبحت هناك هوة شاسعة تفصل حياتنا الحاضرة عن حياتنا بالأمس . ان الشعر النبطى هو النافذة الوحيدة التى تمكننا من التطلع الى أعماق هذا الماضى الذى يبدو سحيقا بالرغم من قرب عهده . فهو الوثيقة الوحيدة التى بين أيدينا والتى من خلالها نستطيع أن نستشف أنماط الحياة الماضية ونستشرف آفاتها . فكما كان الشعر الجاهلى ديوان العرب ، فكذلك الشعر النبطى يستطيع الباحث أن يستنتج منه ـ بعد قراءة ممعنة وفحص دقيق ـ عادات وتقاليد وقيم

ومفاهيم تساعدنا على تصور حياة اسلافنا وربط حاضرنا بماضينا . فالشعر النبطى مصدر هام لا يمكن التغاضى عنه لمن يزمع القيام بدراسة جدية ومتمعنة لجغرافية الجزيرة العربية وتاريخ سكانها من حاضرة وبادية ، ودراسة أحوالهم السياسية والاجتماعية . لذا فان الشعر النبطى دون بقية آدابنا الشعبية الأخرى ثروة أدبية ضخمة وظاهرة من ظواهر الأدب الشعبى الفريدة من نوعها والتى تخص مجتمع الجزيرة دون غيره من المجتمعات الأخرى . فهو فريد فى شكله ومضمونه ، كما أنه فريد فى مكانته الأدبية ووظيفته الاجتماعية وقيمته العلمية .

وقد لعب الشعر النبطى دورا بارزا فى أحداث الجزيرة السياسية والاجتماعية فى العصور التى سبقت توحيد البلاد على يد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز . ومعروف أن الجزيرة فى ذلك الوقت كانت مقسمة الى قبائل ومشيخات صغيرة تقوم ثم تزول بسرعة كما هى الحال بالنسبة للدويلات التى نشأت فى العصر الجاهلى كدولة الغساسنة والمناذرة وكندة وغيرها .

وكانت هذه القبائل والمشيخات فى تطاحن فيما بينها . والشبه واضح بين الحالة السياسية والاجتماعية فى ذلك الوقت وبينها فى العصر الجاهلى . لذا لا يستغرب أن يلعب الشاعر النبطى دورا سياسيا واجتماعيا لا يقل عن نظيره فى العصر الجاهلى . فكما هى الحال فى العصر الجاهلى ، نجد أن الشعر النبطى فى ذلك الوقت لعب دورا بارزا فى دفع الأحداث وتحريك الناس . وكان لكل قبيلة ولكل امارة أو بلدة شعراء يذودون عن عرضها ويسجلون مفاخرها ، وكان لا بد للأمير أو شيخ القبيلة نفسه من أن يكون شاعرا مؤثرا ، لأنه لم يكن هناك قوة فعلية تحكم الناس آنذاك عدا الأسلوب البليغ والدليل المقنع .

وحتى عهد قريب ، كان فرسان الجزيرة وشعراؤها يتغنون بكرمهم وشجاعتهم وشهامتهم ، ويسجلون مفاخر قبائلهم بقصائد عصماء كان يتداولها الرواة ، ويتلقفها الركبان ، وتختزنها الذاكرة الشعبية لسنين طويلة . ولكى نعى الدور الذى لعبه الشعر فى ذلك الوقت ، ما علينا الا أن نقرأ ما جمعه المرحوم محمد بن أحمد السديرى فى كتابة « أبطال من الصحراء » ، أو ما جمعه منديل بن محمد الفهيد فى كتابه « من آدابنا الشعبية » ، أو ما جمعه الشيخ عبد الله بن خميس فى كتابه « أهازيج الحرب » . ومن شيوخ القبائل الذين اشتهر شعرهم بين الناس تركى بن صنهات بن حميد من شيوخ عتيبة ، ومحمد بن هادى من شيوخ قحطان وراكان بن فلاح بن حثلين من شيوخ العجمان . ومن أمراء الحاضرة اشتهر عبد الله بن رشيد وأخوه عبيد بقوة شعرهما وجودته ، كما اشتهر أيضا تركى بن عبد الله آل سعود وابنه فيصل .

أما الشعراء رميزان بن غشام ، وحميدان الشويعر ، ومحمد العبد الله العونى فشهرتهم طبقت الآفاق لما فى شعرهم من نزعات بطولية وسياسية . من أجل ذلك نجد أن الشعر النبطى مصدر هام من مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل نهضتها الحديثة . ولقد نوه بذلك الاستاذ حمد الجاسر فى مقدمته للجزء الأول من كتاب « شاعرات من البادية » الذى جمعه محمد بن عبد الله بن رداس . كما أن الدكتور عبد الله الصالح العثيمين فى كتابه « نشأة امارة آل رشيد » وفى مقاله « الشعر النبطى من مصادر تاريخ نجد » « مجلة العرب ، ج ١١ ـ ١٢ ، س ١١ ، ١٩٧٧ ، ص ص ٨٣٩ ـ ٨٦٣ » قد برهن على قيمة هذا الشعر كمصدر أساسى فى مجال البحث التاريخى .

وقيمة الشعر النبطى كمصدر اجتماعى وحضارى لا تقل عن قيمته كمصدر تاريخى ، اذ أنه فى محتواه ما هو الا صورة حية وانعكاسا مباشرا للظروف الاجتماعية والحضارية فى جزيرة العرب قبل نهضتها الحديثة . ففى مقدمته لديوان عبد الله بن سبيل مثلا ذكر الاستاذ خالد بن فرج أن « شعره ديوان لأحوال البادية جمع فأوعى من أوصاف أحوال البدو فى السلم والحرب والعادات والحل والترحال » . كما أن الشاعر حميدان صور لنا مجتمع حاضرة نجد فى وقته بطريقته الساخرة التى لا تضاهى فى واقعيتها وجودتها الفنية . أما شعراء البادية فقد صوروا لنا حياة البادية من جميع جوانبها ، لا سيما فيما يتعلق بحلهم وترحالهم ، وطرق الغزو والكسب عندهم ، وعلاقة القبائل مع بعضها وعلاقتها مع الحاضرة . وبالاجمال فان الشعر النبطى يستوحى صوره ومعانيه من الواقع ، فالشاعر قد ينتقى أحداثا من الحياة اليومية وينظمها فى قالب شعرى مصقول عماده الموسيقى اللفظية والابعاد الايحائية والمجازية للكلمات . وقد تتكون القصيدة بكاملها من شرائح فنية منتقاة من الواقع الاجتماعى ومرصوفة بمهارة فائقة لتكون وحدة شعرية متكاملة .

٢ ـ **الشعر النبطى سليل الشعر الجاهلى** : وهناك سبب آخر فى غاية الأهمية يدعونا الى الاهتمام بجمع ودراسة الشعر النبطى دراسة علمية رصينة ، وهو وجود علاقة وثيقة تربط الشعر النبطى بالشعر العربى القديم . فالشعر النبطى هو المثال الحى والسليل المباشر للشعر الجاهلى . لذا فان دراسة علمية مستفيضة سوف تعطينا فكرة دقيقة ومحددة للصلات التاريخية والعلاقات الفنية واللغوية التى تربطه بالشعر الجاهلى . وعلى ضوء هذه العلاقة بينهما ، فان أى سبق علمى نحققه فى فهمنا لطبيعة الشعر النبطى سوف تكون له أبعاد وتأثيرات مباشرة على فهمنا للشعر الجاهلى ، خاصة فيما يتعلق بوظيفته الاجتماعية ودوره السياسى ،

وكذلك طرق نظمه وأدائه وتناقله بين الناس كتراث شفهى يعتمد على الرواية والسماع لا على التدوين والكتابة . وان كانت الدواوين هى الوسيلة الوحيدة التى تربطنا بالشعر الجاهلى ، فان الشعر النبطى بشكله التقليدى الشفهى المتوارث منذ القدم كان الى عهد قريب جدا شعرا حيا قويا ولا يزال بعض رواته وممن عاصروا أحداثه وظروفه يعيشون بين ظهرانينا . كما أن القليل من فحوله لا يزالون على قيد الحياة .

ولا يسمح المجال هنا للتوسع فى بحث أوجه العلاقة التاريخية والأدبية التى تصل الشعر النبطى بالشعر العربى القديم ، ومدى التشابه بينهما فى الأوزان العروضية والبنية الفنية والوظيفة الاجتماعية والمواضيع والأغراض الشعرية ، وقد نبه الى هذه العلاقة كتاب عديدون أولهم ابن خلدون فى مقدمته ، وتطرق لها الشيخ عبد الله بن خميس فى عدة مواضع . وقد يعترض البعض على وجود هذه العلاقة بين الشعر النبطى والشعر العربى القديم لأن الأول لغته عامية والآخر لغته فصيحة . فكيف نفسر هذا الفارق اللغوى ؟

يمكننا أن نعتبر أن لغة الشعر النبطى ولغة الشعر الجاهلى البداية والنهاية أو قطبين للغة أدبية واحدة ، الا أن هذه اللغة تتغير بصورة بطيئة ولكن مستمرة على مدى الزمن ومواكبة للتغير الطارىء على اللغة المحلية . والفارق بين لغة الشعر الجاهلى واللغة المحكية آنذاك تستوى درجته مع الفارق بين لغة الشعر النبطى واللغة المحكية فى نجد فى العصور المتأخرة . وكما هى الحال بالنسبة للشاعر النبطى ، فان الشاعر الجاهلى لم يتعلم لغته الشعرية فى المدارس بل عن طريق رواية الشعر ومجالسة الشعراء . والمعروف أن المد الاسلامى نتج عنه تغير سريع فى اللغة العربية بين أهل القرى والمدن . أما عرب البادية فظلوا يتكلمون اللغة الفصيحة ، وينظمون الشعر على غرار شعراء الجاهلية لمدة طويلة ، ومنهم جمع علماء العربية الأوائل المادة اللغوية التى استنبطوا منها قواعد اللغة العربية الفصحى . وهكذا ظل الأعراب يتكلمون اللغة الفصحى بينما شاعت العامية بين سكان المدن الذين أصبحوا لا يستطيعون التكلم بالفصحى الا عن طريق التعلم والممارسة . ولكن هذا التغير الذى طرأ على لغة أهل المدن لم يلبث بعد مدة من الزمن أن تسرب الى لغة عرب البادية . ومن المسلم به أن التغير أمر حتمى تمر به أى لغة حية على مرور الزمن .

غير أن عرب الصحراء ـ بخلاف عرب المدن ـ ليس لديهم مدارس لتعلم قواعد اللغة الفصيحة كما قننها علماء اللغة الأوائل . لذلك نجدهم استجابوا لسليقتهم وتمشوا فى شعرهم مع التغير الطارىء على لغتهم . وفى هذه الفترة ، أى بعد انتقال

الخلافة الاسلامية الى خارج الجزيرة العربية بعدة قرون ، كانت الجزيرة العربية قد أصبحت مسرحا للفوضى السياسية وأصبحت فى شبه عزلة عن بقيـة العالم العربى والاسلامى ، ولم يعد علماء المسلمين ينظرون اليها كمصدر اشعاع روحى وأدبى كما كانت فى السابق .

لذا فان هذه الفترة من تاريخ الجزيرة العربية تتسم بالغموض وشحة المصادر المدونة . ولا نجد من المصادر ما نسد به هذه الفجوة الواسعة بين الشعر الجاهلى والشعر النبطى الا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته بصورة مقتضبة جدا ، حيث أورد عينة من القصائد التى يمكن اعتبارها فى مرحلة انتقالية بين الشعر الفصيح والشعر النبطى . كما أن قصائد شعراء النبط القدمَاء كراشد الخلاوى وأبو حمزة العامرى تبدو أقرب الى الشعر الفصيح من القصائد التى نظمها شعراء النبط المتأخرون .

بالاضافة الى هذه العلاقة التاريخية بين الشعر النبطى والشعر الجاهلى ، فان بينهما علاقة أدبية مباشرة . اذ لا شك أن هؤلاء القلائل من الشعراء النبطيين الذين لديهم المام بالقراءة والكتابة قد اطلعوا على الشعر الجاهلى وتأثروا به بطريقة مباشرة .

قد يتصور البعض أن شعراء النبط كلهم أميون لأنهم نظموا شعرهم باللغة العامية . ولكن الحقيقة أن بعضهم كان مثقفا ثقافة عالية مثل محسن بن عثمان الهزانى ، ومحمد بن حمد بن لعبون ، ومحمد بن عبدالله القاضى . كما أن منهم من كان ينظم بالفصحى والعامية كابن عثيمين وابن بليهد .

والكثير من هؤلاء الشعـراء المتعلمين كـانوا يكتبـون قصائـدهم بـأيـديهم ويجمعونها فى دواوين خاصة . وجميع القصائد التى نشرها خالد الفرج وخالد الحاتم فى دواوينهما وجداها مدونة فى مخطوطات . ولكن لا شك أن معظم شعراء النبط كانوا أميين وان الطريقـة الشائعـة لترويـج الشعر النبـطى هى الطريقة الشفهية .

أهمية دراسة الشعر النبطى فى فهمنا لطبيعة الشعر الجاهلى :

انطلاقا من هذه العلاقة بين الشعر الجاهلى والشعر النبطى ، فان فهمنا للشعر النبطى فهما حقيقيا مبنيا على البحث العلمى سوف يساعدنا على فهم طبيعة الشعر الجاهلى وطرق نظمه وأدائه وتناقله ، حيث أن الشعـر النبطى هـو المثال الحى المعاصر والسليل المباشر للشعر الجاهلى . كما أن ذلك سوف يمكننـا من دحض ما يروجه بعض المستشرقين من مزاعم وشكوك حول الشعر الجاهـلى . وسوف نتناول الآن آخر هذه المزاعم والشكوك من أجل أن نبين مدى أهمية دراسة الشعر

النبطى فى فهمنا لحقيقة الشعر الجاهلى وطبيعته الفنية .

نظرية بارى ـ لورد والشعر الجاهلى : حينما هدأت الزوبعة التى أثارها طه حسين وبارجليوث حول قضية انتحال الشعر الجاهلى جاء بعض المستشرقين فى الآونة الأخيرة ليروجوا لآراء ونظريات لا تقل ركاكة عن نظرية الانتحال . ولكن قبل أن نخوض فى هذا الموضوع لا بد أن نستعرض بايجاز النظرية المسماة نظرية بارى لورد والتى شاعت مؤخرا فى الأوساط العلمية فى بلاد الغرب ، والتى استمد منها هؤلاء المستشرقون أحدث آرائهم عن الشعر الجاهلى .

كان العالم الأمريكى ملمان بارى مهتما بدراسة ملاحم الاغريق . ولاحظ من خلال دراسته أن بعض المقاطع والصيغ اللفظية يكثر ترددها فى هذه الملاحم لدرجة تسترعى الانتباه . ولفهم الوظيفة الفنية لهذا التكرار ، قام هذا العالم برحلة الى يوغسلافيا لدراسة الشعر الملحمى هناك ـ حيث أن الأدب الملحمى قد انقرض فى بلاد الاغريق . ولاحظ ملمان بارى أن التكرار له وظيفة أساسية فى نظم الملحمة حيث أنه يساعد الشاعر فى النظم ويريح ذاكرته من حفظ الملحمة التى قد تصل الى آلاف الأبيات . فالشاعر ـ وهو فى الغالب أمى ـ لا يحفظ الملحمة وانما يحفظ ما تتضمنه الملحمة من أحداث ، كما يحفظ عبارات وصيغ لفظية يستخدمها لينظم الملحمة بسرعة فائقة أمام المستمعين . أى أن عملية النظم تتم خلال عملية الالقاء أو الأداء ، وليس قبلها . لذا فان كل مرة يلقى فيها الشاعر ملحمته يترتب على ذلك نظم جديد للملحمة يختلف عن النصوص التى القاها فى زمن سابق أو التى سيلقيها فى زمن لاحق . أو بعبارة أخرى ، فان نص أى ملحمة لا يختلف فقط من شاعر لآخر ، بل حتى من فترة لأخرى عند نفس الشاعر . ونتيجة لذلك ، فانه لا يجوز أن نفترض أن الملحمة لها نص أساسى أو مؤلف أساسى ، حيث أن الشعر الملحمى يتصف بالتغير المستمر . فالشاعر لا يحفظ الملحمة عن ظهر قلب ويعيدها طبق الأصل حين يلقيها أمام المستمعين ، بل يعيد ابداعها من جديد . وقد لخص نظرية بارى تلميذه البرت لورد فى كتابه : The singer of tales

وقد حاول بعض الباحثين تطبيق هذه النظرية على الشعر الشفهى فى مجتمعات مختلفة . كما حاول اثنان من المستشرقين هما جيمز مونرو ومايكل زوتلر تطبيق هذه النظرية على الشعر الجاهلى . وبما أن الشعر الجاهلى شعر شفهى يتسم بتكرار العبارات والصيغ اللفظية ويتسم باختلاف واضح بين نصوص القصيدة من مصدر لآخر ، لذا يرى هذان المستشرقان أنه لا يجوز لنا أن نتصور أن هناك نصا أصليا لمعلقة امرىء القيس مثلا ، كما لا تصح نسبة هذه المعلقة لهذا الشاعر . فكل من روى هذه القصيدة هو مؤلف جديد لنص جديد ؛ وليس هناك

نص أصلى ولا مؤلف أصلى لتلك القصيدة . ويمكن قول ذلك عن جميع القصائد الجاهلية . أما ادعاء علماء العرب الأوائل من صحة هـذه النصوص الشعـرية ونسبتها الى قائليها فى العصر الجاهلى فهذا يرجع فى نظر زوتلر ومونرو الى جهل هؤلاء العلماء وعدم معرفتهم بنظريات النقد الأدبى الحديثـة . لذا يمكن اغفال معظم ما كتبوه عن الشعر الجاهلى على أنه مجرد من الموضوعية والروح العلمية .

وهكذا يرى هذان المتطفلان على اللغة العربية والأدب العربى واللذان تفصلهما مئات السنين عن العصر الجاهلى وآلاف الأميـال عن موطن الشعـر الجاهـلى ، واللذان لا يجيدان حتى قراءة العربية ونطقها ، أنهم أقدر على فهم الشعر الجاهلى من علماء العرب الأوائل وجهابذة الأدب الذين عاصـروا هذا الشعـر وتشبعوا بروحه ، وجابوا من أجله الفيافى المقفرة ولازموا الأعراب ليأخذوا عنهم الشعـر وينهلوا من معينه الصافى .

دحض مزاعم زوتلر ومونرو : والمتصفح لأمهات الكتب والمصادر العـربية الأساسية كالبيان والتبيين للجاحظ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغـانى للأصفهانى ، والخصائص لابن جنى ، والعمدة لابن رشيق يجد أن علماء العرب وشعراءهم قد اتفقوا على أن عملية النظم عملية صعبة معقدة تسبق عملية الالقاء وتختلف عنها .

وليس أدل على ذلك من أن القاب بعض الشعراء الجاهليـين تدل عـلى الأناة والتمهل فى النظم ، كالمهلهل والمرقش والمحبر والمثقب والمتنخل . كما أن مصطلحات النظم كنقح وثقف وحكك وحاك وتنخل كلها تدل على احالة النظر فى القصيدة قبل نشرها بين الناس . ومن شعراء الجاهلية من سموا عبيد الشعر كزهير والحطيئة .

ومن المعروف أن دور الشاعر يختلف عن دور الراوى ، ولو أن الأخير قد يتحول فى آخر الأمر الى شاعر . وتلعب الذاكرة دورا مهما فى رواية الشعر الجاهلى وتناقله بين الناس . فالرواية كان يحفظ القصيدة عن ظهر قلب ولا يحاول أن يغير فيها شيئا محافظة على سمعته وأمانته ، وكل مرة يروى فيها القصيدة يحاول أن يتقيد بالنص الأصلى . ولكن جل من لا ينسى فالانسان عرضة للنسيان والخطأ ، ومن هنا ينتج بعض التفاوت بين نصوص القصيدة الواحدة فى المصادر المختلفة .

واذا كان زوتلر ومونرو لا يثقان بالمصادر العربية كان الأحرى بهما أن يدرسا الشعر النبطى كمثال حى للشعر الجاهلى ، وان لا يركنا لنتائج توصل اليها علماء آخرون من خلال دراسة الشعر الملحمى فى يوغسلافيا ، فالشعر الملحمى يختلف كلية عن الشعر الجاهلى ، بينما الشعر النبطى هو السليل المباشر للشعر الجاهلى . ودراسة الشعر النبطى تؤيد ما جاء فى المصادر العربية والشعر الجاهلى من أن

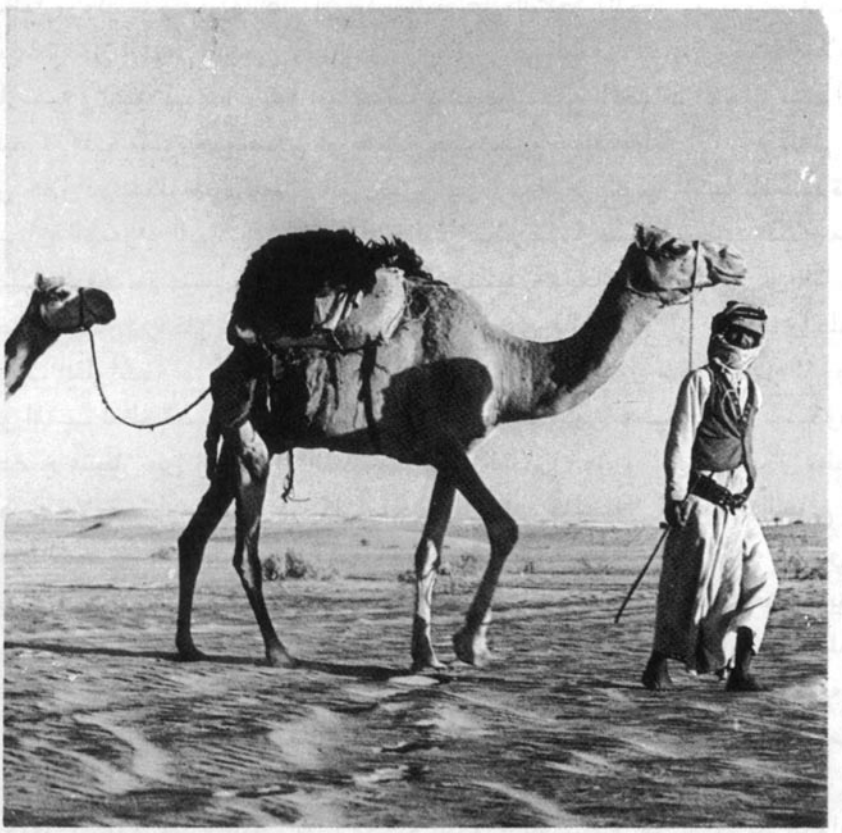

نظم القصيدة عمل شاق مضن يسبق عملية الالقاء ، ومن أن النظم والرواية عمليتان منفصلتان ومختلفتان كل منهما عن الأخرى . وهذا ما سنبينه الآن .

النظم والأداء فى الشعر النبطى :

تدل جميع الملاحظات والتحريات التى أجريناها فى الميدان من خلال مشروع جمع الشعر النبطى من مصادره الشفهية فيما يتعلق بنظم القصيدة النبطية وطرق حفظها وروايتها وتداولها على أن ما ينطبق على الشعر الملحمى فى يوغسلافيا لا ينطبق على الشعر النبطى ، وبالتالى لا ينطبق على الشعر الجاهلى بحكم العلاقة التاريخية والفنية بينهما . كما أننا حينما نتفحص مطلع القصائد النبطية نجد أن الشعراء قد ضمنوا قصائدهم آراءهم واحاسيسهم تجاه عملية الابداع الفنى . ومن خلال دراستنا لهذه المطالع التى تكون جزءا مهما من البنية الكلية للقصيدة . نجد أن الشعراء النبطيين يرون أن عملية النظم مهمة صعبة تتطلب الكثير من الجهد والوقت . وحينما يتحفز الشاعر لنظم قصيدته فالغالب أن يتنحى عن الناس ويخلو بنفسه فى مكان منعزل كأن يتسنم قمة حبل عالية ، أو أن يركب راحلته ويجوب الفلوات . أما البعض فيستغل فترة الهدوء آخر الليل حين تنحدر النجوم نحو المغيب لنظم قصيدته . وعند البعض الأخر قد تكون عملية النظم مصحوبة بتحضير فنجان من القهوة أو التدخين . ومن الشعراء من يدعى أنه خلال نظمه للقصيدة لا يستطيع القرار فى مكان واحد ، بل يعدو كالمجنون أو الذئب الجائع أو البعير الظمآن . كما أن بعض الشعراء ينظم قصيدته بصوت عال أشبه ما يكون بالنواح أو العويل . وحينما يبدأ الشاعر النبطى بنظم قصيدته ينتابه شعور غريب وقلق وجدانى ويحس كأن على كاهله عبئا ثقيلا ينوء به ، ولكن بعد أن يتم عملية النظم ويعبر عن افكاره ومشاعره بطريقة مرضية يغمره شعور بالراحة الذهنية . كل هذه الدلائل تشير الى المعاناة الفكرية والمخاض الفنى اللذين يتعرض لهما الشاعر النبطى خلال عملية النظم .

وبعد أن تتم عملية النظم تبدأ مرحلة الترويج للقصيدة أما عن طريق الرواية الشفهية أو عن طريق الكتابة . وقبل شيوع الكتابة فى العصر الحاضر كانت معظم القصائد النبطية يتم تناقلها عن طريق الرواية الشفهية . وهناك عوامل كثيرة تتحكم فى شيوع القصيدة على السنة الرواة كجودتها الفنية وأهميتها التاريخية والمكانة الاجتماعية لقائلها . وهناك مناسبات عديدة لتداول القصائد وترويجها حيث أن الناس فى العصور الماضية كلهم يروون الشعر ويستشهدون به فى جميع المناسبات ، وكانوا يتخذونه قدوة لهم فى سلوكهم وجميع شئون حياتهم . بالاضافة الى ذلك ، فان القصيدة قد تكون موجهة لشخص معين قد تفصل بينه وبين الشاعر

مسافات شاسعة . عند ذلك فان الشاعر قد يذهب لالقاء القصيدة بنفسه الى هذا الشخص . وقد يبحث عن كاتب يكتبها له ثم يبعث بها الى الشخص الموجهة اليه . ولكن فى كثير من الحالات يبحث الشاعر عن « نديب » ليلقنه القصيدة وبحفظها اياه بيتا بيتا ليذهب الى الشخص المعنى ويلقيها بين يديه . وغالبا ما يصف الشاعر هذا النديب بالذكاء الحاد والجرأة كما يصف راحلته والطريق الشاق الملىء بالاهوال والأعداء .

وحين يلقى الشاعر قصيدته اما أن يتغنى بها ، وهذه الطريقة تسمى « ديونه » ، وقد يلقيها بطريقة خطابية وهذه الطريقة تسمى « هذ » . ويعتنى الشعراء بالقاء قصائدهم ويتوخون الطريقة التى تجذب اليهم المستمعين وتشد انتباههم . وبما أن أبيات القصيدة تنتهى بنفس المقطع الذى هو القافية ، فان المستمعين عادة يرددون هذا المقطع مع الشاعر تعبيرا عن استحسانهم وتجاوبهم .

قائمة ببعض مراجع الشعر النبطى

الرقم	المؤلـــف	اسـم الكتـــاب
١	منديل بن محمد بن منديل الفهيد	من آدابنا الشعبية فى الجزيرة العربية جـ ١ قصص وأشعار
٢	» » » »	من آدابنا الشعبية فى الجزيرة العربية جـ ٢ قصص وأشعار لنساء العرب
٣	» » » »	من آدابنا الشعبية فى الجزيرة العربية جـ ٣ ردود الرسائل بين المجيب والسائل
٤	عبدالله بن محمد بن رداس	شعراء من البادية
٥	» » »	شاعرات من البادية جزءان (جـ ١، ط ٤)
٦	فهد محمد الفردوس	ديوان ابن فردوس
٧	» » »	من أدب الشعراء والفرسان الأوائل
٨	الأسمر خلف الجويعان	شاعر من نجد
٩	عبدالله اللويحان	روائع من الشعر النبطي
١٠	مطلق محمد البادى البراق العتيبي	ديوان ابن بادى، الأنوار الهادية من أشعار البادية
١١	عبدالله بن عبار العنزى	قطوف الأزهار
١٢	» » »	أصدق الدلائل فى أنساب وائل
١٣	عاتق بن غيث البلادى	الأدب الشعبي فى الحجاز
١٤	محمد الأحمد السديرى	أبطال من الصحراء
١٥	فهد الرشيد	شعراء الرس النبطيون (جزءان)
١٦	محمد بن احمد الثميرى	الفنون الشعبية فى الجزيرة العربية
١٧	خالد الفرج	ديوان النبط (جزءان)
١٨	عبدالله الحاتم	خيار ما يلتقط من الشعر النبط (جزءان)
١٩	محمد سعيد كمال	الأزهار النادية من أشعار البادية (١٥ جزءا)
٢٠	سعود بن سند السيحان	التحفة الرشيدية فى الأشعار النبطية (جزءان)
٢١	سليمان صالح الهويدى	مجالس العرب
٢٢	عبيسان الحميدانى	نفحات من الجزيرة والخليج العربي
٢٣	بجاد لهاب الجش	ديوان الأمثال : أشعار ومواقف

٢٤ محمد العزب	تحفة الجزيرة : قصص واشعار من البادية
٢٥ عبدالرحمن عبدالكريم العبيد	قبيلة العوازم
٢٦ سعد بن جنيدل	شعراء العالية : من أعلام الأدب الشعبي
٢٧ » »	بلاد الجوف ، أو دومة الجندل
٢٨ عبدالرحمن بن عطا الشايع	الجوف (جزءان)
٢٩ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهرى	ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد
٣٠ » » »	آل الجربا ، فى التاريخ والأدب
٣١ » » »	العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين
٣٢ » » »	انساب الأسر الحاكمة فى الاحساء
٣٣ شفيق الكمالي	الشعر عند البدو
٣٤ عبدالله بن خميس	الأدب الشعبي فى جزيرة العرب
٣٥ » »	من أحاديث السمر
٣٦ » »	أهازيج الحرب، أو شعر العرضة
٣٧ » »	راشد الخلاوى
٣٨ » »	الشوارد ـ جـ ٣ (من شوارد الشعر الشعبي)
٣٩ » »	المجاز بين اليمامة والحجاز
٤٠ » »	معجم اليمامة
٤١ محمد بن ناصر العبودي	المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية بلاد القصيم (٦ أجزاء)
٤٢ سعد بن عبدالله بن جنيدل	المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية عالية نجد (٣ أجزاء)
٤٣ محمد بن عبدالله بن بليهد	صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار (٥ أجزاء) ط ٢
٤٤ فهد المارك	من شيم العرب (٤ أجزاء)
٤٥ وديع البستاني	نبذة تاريخية عن نجد أملاها الأمير ضارى بن فهد الرشيد (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر)
٤٦ مجلة العرب	جميع الأعداد

عبدالله العيسى

دراسات فى الشعر الشعبي الكويتي

قائمة ببعض مراجع الأدب الشعبى فى الجزيرة العربية

الألمعي ، يحيى ابراهيم :

١٤٠١ **الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية** ـ مطابع الرياض ـ الرياض.

البلادى ، عاتق بن غيث :

١٣٩٦/١٩٧٦ **طرائف وأمثال شعبية من الجزيرة العربية** ـ شركة المدينة للطباعة والنشر ـ جدة.

١٣٩٧/١٩٧٧ **الأدب الشعبي في الحجاز** ـ مكتبة دار البيان ـ دمشق.

الجهيمان ، عبدالكريم :

١٣٨٧ـ١٣٩٠ من أساطيرنا الشعبية في قلب جزيرة العرب (٤ أجزاء).

١٩٦٧ـ١٩٧٠ مكتبة المعارف ـ الرياض/دار الثقافة ـ بيروت.

١٣٩٩ـ١٤٠٣ **الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب** (عشرة أجزاء). دار أشبال العرب ـ الرياض.

ابن خميس ، عبدالله بن محمد :

١٣٩٧ **من أحاديث السمر ، قصص واقعية من قلب جزيرة العرب** . (ط ٢) مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض.

زياد ، توفيق :

١٩٧٠ **عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين** ـ دار العودة ـ بيروت.

١٩٧٤ **صور من الأدب الشعبي الفلسطيني** ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.

السويداء ، عبدالرحمن بن زيد :

١٤٠٣/١٩٨٣ **نجد في الأمس القريب** ـ دار العلوم ـ الرياض .

العبودى ، محمد بن ناصر :

الأمثال العامية في نجد دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض.

١٤٠٢/١٩٨٢ **مأثورات شعبية** ـ الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض.

العقيلي ، محمد بن أحمد :
١٤٠٣/١٩٨٢ **الأدب الشعبي في الجنوب** (جزءان) دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض.
القويعي ، محمد بن عبدالعزيز بن علي :
١٤٠٢/١٩٨٢ **تراث الأجداد** ـ مطابع البادية للاوفست ـ الرياض .
المارك ، فهد :
١٣٨٦/١٩٦٦ **من شيم العرب** (اربعة اجزاء) (ط ٢) ـ المكتبة الأهلية ـ بيروت.
محضر ، حسين عبدالله :
١٣٩٥ **الأمثال العامية بمكة المكرمة** ـ نادى مكة الثقافي.
منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث :
١٩٧٣ **قرية ترمسعيا : دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني**. سلسلة كتب فلسطينية ـ ٤٥ ـ بيروت .

قائمة ببعض المراجع العامة

ابراهيم ، نبيلة :
* * ١٩٧٣ **الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق** . مكتبة القاهرة الحديثة .
١٩٧٤ **أشكال التعبير في الادب الشعبي** ط ٢ ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر .
الجوهرى محمد محمود :
١٩٧٨ **مصادر دراسة الفولكلور العربى : قائمة ببليوجرافية مشروحة ـ دار الكتاب للتوزيع** .
١٩٨١ **علم الفولكلور**(الجزء الاول) ط ٤ ـ دار المعارف القاهرة .
الجوهرى ، محمد محمود وعبدالحليم حواس وعلياء شكرى ..
* * ١٩٦٩ **الدراسات العلمية للعادات والتقاليد الشعبية** ـ مكتبة القاهرة الحديثة .
الساريسي ، عمر عبدالرحمن :

١٩٨٠ **الحكاية الشعبية فى المجتمع الفلسطينى** ـ المؤسسة العربية للدراسة والنشر .

ساعي ، احمد بسام :

١٩٧٤ **الحكايات الشعبية فى اللاذقية** ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق .

سوكولوف ، يورى (ت . حلمي شعراوى وعبدالحميد حواس) ..

* * ١٩٧١ **الفولكلور : قضاياه وتاريخه** ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

صالح ، احمد رشدى :

١٩٧١ **الأدب الشعبي** ـ ط ٣ ـ مكتبة النهضة المصرية .

العنتيل ، فوزى :

١٩٧٧ **الفولكلور : ماهو ؟** المطبعة العربية الحديثة ـ القاهرة .

١٩٧٨ **بين الفولكلور والثقافة الشعبية** ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

عرنيطة ، يسرى جوهرية :

١٩٦٨ **الفنون الشعبية فى فلسطين** ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث .

كراب ، الكزاندر هجرتى (ت . رشدى صالح) ..

* * ١٩٦٧ **علم الفولكلور** ـ وزارة الثقافة ـ مؤسسة التأليف والنشر ، القاهرة .

يونسى ، احمد على :

* * ١٩٧٥ **مقدمة فى الفولكلور** ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

مرسي ، عبدالحميد :

١٩٧٣ **دفاع عن الفولكلور** ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث ..

١٩٧٣ **دراسة فى المجتمع والتراث الفلسطيني : قرية ترمسعيا** . سلسلة كتب فلسطينية ٤٥ ـ بيروت .